موسى حوامدة يحاور الموتى تحت السماء

سامحيني يا أمي لم أخطف الشمس بعد

مؤيد داود البصام

عمان

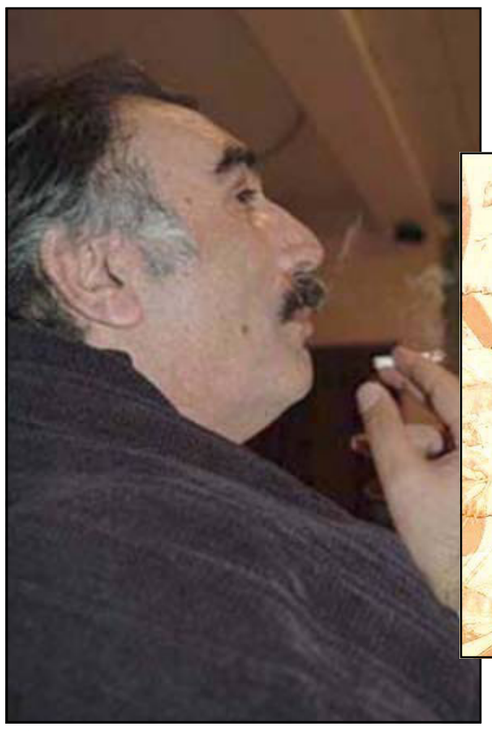

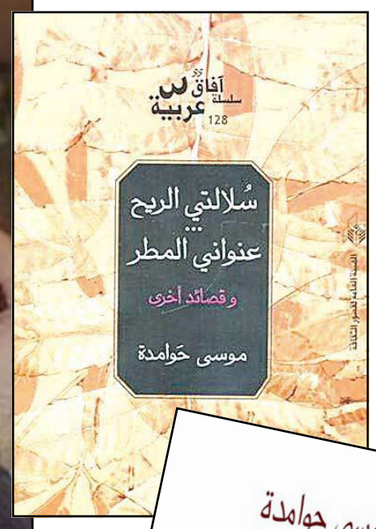

التجديد في الشعر العربي قضية ليست بالحديثة أو المعاصرة، فهي ممارسة دأب عليها الشاعر العربي منذ عصر ما قبل الإسلام وما بعده، حسب ظروفه وبيئته التي أملت عليه أشكال التجديد، فالشاعر ابن بيئته، ولا نريد أن نناقش في ما قدمه الشاعر العربي عبر قرون من حالات التجديد، فهذا موضوع اشبع دراسة وقدم فيه الكثير، ولكننا إزاء شاعر من المعاصرين لم يخرج عن هذه الروح التي تلبست الشاعر العربي في الإتيان بكل ما هو جديد، ليتم الانفعال والتفاعل بين الشاعر والمتلقي، خارج السياق الذي سارت عليه القصيدة الحديثة بعد ما جاء به التفعيلين من خروج على قصيدة الصدر والعجز، وحركات التغيير على بنية القصيدة العربية، والتجاذبات التي أخذت منها مأخذ بعيد حتى وصل بالبعض لتقديم قصيدة بعيدة عن بيئتها العربية والشرقية، تتقارب في الشكل مع بناء القصيدة الأوربية وتختلف حتى في النص، إلا إننا عندما نقرأ قصائد الشاعر موسى حوامده، بمجمل دواوينه التي أصدرها خلال السنين الماضية منذ ديوان (شغب،1988) وصولا إلى آخر ديوان أصدره (موتى يجرون السماء ، 2011)، نقف على حقيقة تظهر متتابعة في أعماله، انه شاعر لا يستقر في مكان، يختار الترحال من موقع إلى آخر وبما يريد، ثم يغادره إلى بُعد تتراوح فيه هذه القوة الجارفة لإنتزاع الحقيقة الجوانية، والنظر إلى الأبعاد الأخرى التي تتحكم في مجساته، وكأنه يحاكم نفسه على كل خطوة مشاها، فهو لا يبرر ولا يقدح ولا يمدح، ويختلف في بناء القصيدة الحديثة، في ابتعاده عن الغموض نحو الوضوح والتبسيط، وهذه الروح المتمردة أخذت أبعادها في تجديد بناء القصيدة عندما بدأ ثورته الصارخة على الواقع والذات في ديوان (سلالتي الريح..عنواني المطر)، ليقلب موازين المعادلة ويثبت أنه لا يقبل القسمة، إن ما يبثه هذا الوجد المتعالي المبني على أنواع من الحب اختاره بعناية ورسخه في داخله، ليظهر عبر كلمات اختارها بلغة صاغها بدلالات وإشارات وشفرات استدل بها للإشارة إلى المواجع الخاصة والعامة، من خلال ما إكتسبه من معارف وتجارب ليستلها من حواشي التاريخ أو حوادثه وحوادث العصر الحاضر، مستشهدا بها من تاريخ شعبه والشعوب الأخرى، ثم وقف من هذه الأرومة متطلعا ليراها تزدهر وتضيء من الداخل إلى الخارج، وعلى الرغم من اصطدامه بالواقع المر، فهو لا يقف مكتوف اليدين ينظر إلى خسارته، عبر السكوت للتغطية على خيبة الاختيار، إنما يعلن تمرده على ذاته أولا ومن ثم على الآخر: (سامحيني يا أمي/لم اخطف الشمس بعد،/ لم أبدد تعاليمك يا بوذا،/أخلفت زماني ورائي وانأ أحمل جثتي/ للماضي أسير...... لن أصل غايتي/ لن يخدمني الرضا/ فكرة الليل مجبولة على الخداع) سلالتي الريح عنواني المطر، قصيدة أقل مما يحبذ المزمار، ص ,25هذا التطلع المأساوي للخسارات يتحول عند موسى حوامده، ثورة تتأجج من الداخل لتظهر للخارج عبر اختياره لمفردات اللغة التي ينتقيها لتشكل لوحة تجانس بين الفكرة والواقع، متمردا فيها على ذاته وعلى اللغة من حيث هي أداة توصيل، فهو يخترع أدواته بنفسه، فيوجد هذه الثورة في النص عبر هذه المفردات المنتقاة، والتي تتحول بعض منها إلى رؤى فلسفية، تحمل تساؤلاتها التي تبقى الإجابة منوط بالتفسير الذي يضعه القارئ في تأويله لما يقرأ، لهذا نجد تعدد التأويلات في النص الواحد، مما يعطي المساحة لتعدد المفاهيم، ومن هنا يأتي التساؤل، هل هو متجدد أم يخترع التجديد ؟ فإذا ناقشنا الخطوات التي مر بها عبر السنين التي كتب فيها نصوصه ومقارنة مع مواقفه في الحياة اليومية، سيكون الجواب إن روح التجديد مجبول عليها من هذه الروح المتوقدة في حب التغيير، حينما يدرك أن الموقف الحياتي، يتطلب الوقوف للمراجعة الذاتية، وهنا تحدث نقطة التحول التي تسوق معها التحول في إيجاد المفردات والجمل التي تتواءم مع التغيير في الموقف، وكذلك الصور والرموز والشفرات، وإيجاد معابر من مختلف الأشكال لتوصيل الفكرة عبر قيم جمالية يصهر فيها كل الذي عرفه وخبره لينتقي منها ما يتطابق مع الموقف، واضحة خالية من تعقيدات القصيدة الحديثة التي سادت مفاهيمها في المنطقة العربية، من حيث ظل الفهم مجتزئ في تقليد النص الغربي، الذي يتوافق والحياة والبيئة التي يعيشها الشاعر هناك وهي مختلفة عما نحن نعيشه، تشتغل عند موسى الحوامده اللغة بالمفردات والصور المتلاحقة، بكلمات مألوفة تحمل بساطتها ودلالاتها، ومن يمتلك أداة شعرية، تبسط الرؤية للمتلقي وتتعمق بالجذور يملك ميزة قلما نجدها إلا في النادر من الشعراء المعاصرين، " الشبيه بالنعامة أيامي،/ أيامك لم تسفر عن نتيجة لصالح الياسمين./ ظل الحطب الناشف وسيلة النجاة لديك،/دربك للوصول إلى دفء الكلمات، /ظل الدخان يأكل صدرك حتى ورثت سواد الليالي، " ص31 موتى يجرون السماء... فهو إضافة إلى الرؤية النفسية الوجودية التي يضمنها أبياته، من خلال نقل معاناته اليومية، يجوس في دروب الرمز والأسطورة وتراثه الشعبي، بخيال ما وراء الطبيعة يمتد بشكل واسع بلا حدود " لا تشبهني كلماتي/ تشبهك الغواية،/ أقل ما يقال/ عند أعتاب المشهد السريالي/جيش يتمطى بزيه ألحشيشي/بمعتقداته الوثنية/ونشيده الفرعوني الخالد/يتلقى أوامره من فظاعة في كتاب عتيق من مطبعة بولاق،/بعد أن فتح نابليون عقول المشرقيين/بعد أن قارعته عكا/ بعد أن ألقى طاقيته من على سورها/ بعد أن صار إماما للمسلمين/وشيخا للرهبان. " ص62 سلالتي الريح عنواني المطر....إننا أمام ثلاثة عشر بيت يحتوينه ثلاثة عشر صوره واستشهاد، فيهم ثمانية نقلات ، فأي كاميرا تلاحق هذه المشاهد، وأي عقل يتحول لمسك هذا السيل من المعلومات، هذه القدرة المتجددة تجدها باستمرار مزروعة في قصائد الحوامده، ولكنه بالرغم من هذه الصور والشفرات المتلاحقة هناك وضوح وفهم للمعاني، انه يحاور التاريخ بمفردات الحاضر، بما يفهمه الإنسان البسيط وما يتعمق به المطلع، وهذه هي النقلة التجديدية في قصيدة الحوامده، إنه يمتد بالقارئ نحو آفاق من الخيال لترتيب الواقع، فالتفسير الأول لها، أنها قصيدة اجتماعية، تأخذ شكل الحالة النفسية التي تتحدث عن ذكريات ابن لأبيه أو يستذكر أمه، وتعكس واقعه بعد فقدهما، وهذا ما نجده يتكرر في قصائده، الحديث عن ذكرياته لامه وأبيه، والتأويل الثاني للقراءة أنه يزيح الهم الفردي على الواقع الاجتماعي والسياسي العام، وهو ما يحيلنا للنظر في استخدام الضمائر وتداخلاتها بين السؤال والجواب، فهو تارة يتحدث بلسان المخاطب وتارة بلسان الآخر ، وكذلك الجواب، وهو ما يحيل لإدراك أن الشاعر موسى حوامده، يتحرك برؤية مترسخه في بناء القصيدة ألحديثه بناء على ترابطه مع علاقاته تجاه الواقع والبيئة والظروف التي تتحكم به، ولا يترك المتلقي في حيرة لفك شفرات القصيدة ، إنما وضوحها من استشهاده بواقعه، وهو ما يشكل موقفه بناء على القناعة، وليس استعراضاً ومن هنا يتأتى جديده بتحولاته في اختيار اللغة ومفرداتها و التشبيهات والصور والرموز التي يستشهد بها..

موسى حوامدة

انه شاعر لا يستقر في مكان، يختار الترحال من موقع إلى آخر وبما يريد، ثم يغادره إلى بُعد تتراوح فيه هذه القوة الجارفة لإنتزاع الحقيقة الجوانية، والنظر إلى الأبعاد الأخرى التي تتحكم في مجساته، وكأنه يحاكم نفسه على كل خطوة مشاها، فهو لا يبرر ولا يقدح ولا يمدح، ويختلف في بناء القصيدة الحديثة، في ابتعاده عن الغموض نحو الوضوح والتبسيط، وهذه الروح المتمردة أخذت أبعادها في تجديد بناء القصيدة عندما بدأ ثورته الصارخة على الواقع والذات

ناهضة ستار في حوارها الشعري

أسئلة الذات بنصف بوح

أثير محسن الهاشمي

القادسية

تؤثث الشاعرة ناهضة ستار – قصائدها – بروحية شعر الحداثة، الذي يتبنى فكرة تجديد القصيدة الكلاسيكية، فالقصيدة الجديدة باتت تنتفض من غبار التقليدية، حيث التجديد بماهية اللغة من رمز وايحاء، والابتعاد عن المباشرة اللغوية، وبذلك ترتقي القصيدة الحديثة الى رؤى وتجليات متكاملة من حيث المستوى التركيبي والدلالي وحتى الصوتي، بالاضافة الى ثقافة الشاعر، ولذلك باتت القصيدة – اليوم – تعبيرا عن ثقافة الشاعر، او كما يقول بارت لا يوجد نص بريء، أي ان النصوص نتاج ثقافات.

تكمن الحالة الثقافية في (حوار بنصف بوح) بشكل واضح، اذ تتجلى الذات الواعية المفكرة في ماهية القصيدة الواحدة – كقصيدة – وفي جزئيتها كجملة، وبالتالي فاننا إزاء منظومة شعرية متكاملة من حيث الشكل والمضمون، والسؤال الذي يطرح نفسه : هل (السؤال) علامة بارزة من علامات الثقافة الأدبية؟ أو منطلقا لماهية الذات؟

(قد) يشكّل السؤال – اليوم – بؤرة مهمة لتجليات الثقافة، ومرتكزا للولوج الى عوالم الذات المبدعة، وعلى هذا الأساس فهو المُحرك والمُؤثر للبوح بما يجول في الباطن، وعما يهيمن على الظاهر.

من هذا المعنى، تنطلق د. ناهضة ستار عبر مجموعتها الجديدة (حوار بنصف بوح)، لتبوح لنا عن عوالم الذات المستفهمة، والتي لا تكتمل الا بوجود إجابات لها :

وماذا بعدُ؟
أم ماذا يظلُّ؟
أكلُّ الكون.. أسئلة وحلٌّ؟
يسافر ضوءُنا قدرا جميلا
فيُشتل في بقايا الروح نخلُ
فماذا بعدُ..؟ (ص7)

ان ثقافة الأنسان بشكل عام، ترتكز على نقد الذات، والذات المفكرة هي الذات المستفهمة، التي قد تبحث عن اسئلة مكملة، ليكون الاستفهام هيمنة ابداعية قلقة، يُحتاج لها أجوبة بحجم السؤال ذاته، والاسئلة القلقة لدى د. ناهضة، هي ما توتر من اجواء النص، فتطوره أكثر مما تضعفه، وذلك من خلال الاسئلة المرهونة بالثقافة التي تحملها، وهذا ما نلمحه في نصوصها :

كل الذي قد أتى
يأتي بلا قمرٍ
ولا سؤال..
توارى خلف اسئلتي
أدمنتُ أسئلتي.. أدمنتُ خيبتها
أدمنتني قلقا..
في صمت أزمنتي.. (ص32)

ان لغة السؤال عند الشاعر ناهضة ستار، يضفي لبروز الخطاب الذاتي (الأنا)، المعبر عن الآخر، وبالتالي فان حيز الخطاب ينطلق فكريا ضمن منطقة الصمت، ويبرز لغويا من خلال الصور الشعرية :

ماذا على الريح !!
لو قالت حكايتها ؟
اذا لحطّ غياب الكون في رئتي
ماذا على البحر.. !!
لو أسرى بلحظتها
صوب النهار وصلّى عند أضرحتي !!!
ماذا على الحرف.. !!
لو أعطى نبوءته؟
لأستيقظ الحلم أسرابا باجنحتي. (ص33)

يتحرك النص الشعري عند الشاعرة ناهضة ستار وفق منظومة سردية صورية، تُكسر فيها الرتابة التعبيرية، كتكثيف الصور البلاغية فيها (الريح/لو قالت حكايتها – البحر/لو أسرى بلحظتها – الحرف/لو أعطى نبوءته)، كما ان محورية النص الشعري لديها قائمة على النضج التعبيري التركيبي والدلالي :

تلك الحقيقة..
أعتقت أجيالها
ترنو الى قمرٍ يجير سؤالها
فطفولة تحكيٍ.. واسئلة ترى..
وبشارة..
أفضت اليك مآلها
حتى يجيء الصحو آخر وحشة..
سفرا جميلا يستظل ظلالها. (ص54)

(تلك الحقيقة/اعتقت اجيالها)، السؤال الذي يطرحه النص : حقيقة منْ ؟ ولمنْ ؟ حقيقة محددة؟ أم حقيقة عامة؟

أن ما يميز نصوص الشاعر ناهضة ستار، استعمالها لتقنية (نص داخل نص) او نص يحتمل تأويل القراءة، او يحتاج اكثر من قراءة، وهذا ما يعطي للنص قوة التعبير والايحاء (طفولة تحكي واسئلة ترى/بشارة.. أفضت اليك مآلها/يجيء الصحو آخر وحشة..)، حيث تُسهم الأستعارة البلاغية في ترصين النص، كما ان لغة الايماءة تشكل منعطفا لانتفاض ما لا ينتفض، بمعنى يمكن لنا ان نؤول (بشارة) الى تجليات اخرى مقاربة بالشكل والصوت، وبذلك يتشظى النص الى معان آخرى، أجرأ لغة، خاصة وما تحمله مفردات الجملة من قرينة دلالية تدعم هذا التأويل وذاك الطرح.

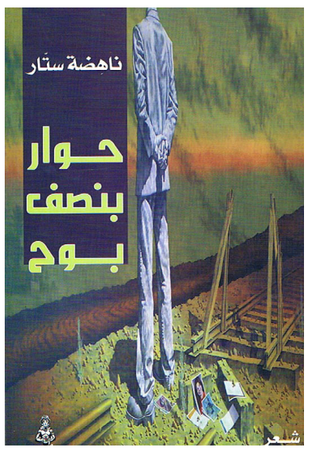

ثمة هيمنة واضحة للذات، بوصفها مرتكزا جماليا تتوسع لاحتواء السؤال، فالذات المبدعة هي نتاج للتعبير عن الثقافة ومرجعياتها الكامنة :

اسمي...
غياب التيه عن أفق النخيل
اني بلا خمر سأعتق غيمتي
أحبو على قمر الذهول..
وأصرخ النجم الحزين
بـ.. يا.. ويا..
في أيّنا سكن البديلُ؟؟؟؟ (ص70)

تخلق الذات مناجاة متحولة من حالة الخبار الى الرغبة بالفعل ومن ثم الى السؤال، تصوغها الشاعرة برؤية بلاغية محكمة (اسمي غياب التيه/اعتق غيمتي/أحبو على قمر/اصرخ النجم الحزين).

ان النتاج الشعري في (حوار بنصف بوح) ينم عن اعتناء واضح في طريق بناء اللغة ظاهرها وباطنها، اذ تنتج لغتها سمات بلاغية يشكلها النص، وليس العكس، وبذلك تكمن براءة اللغة في الصياغة، التي تحمل تكثيفا للمعنى، كما ان روحية البناء اللغوي يخلق تفاعلا دلاليا :

عزف السؤال نشيده في الصومعةْ
وحجارة الليمون تعرف ما معهْ
رسم الضحى.. سر الحكايا.. نجمة
حوراء يلبسها المساء لترضعهْ
كل الذي ساءلت عن قسماته
لم يختبئ حين أعترته الزوبعهْ. (ص89)

يمثل النص لغة حداثة بإطار وشكل كلاسيكي، لكن اهتمام الشاعرة بتكثيف الاستعارة، أمكن تطور البيت الشعري (عزف السؤال/حجارة الليمون/رسم الضحى/حوراء يلبسها المساء)، وليغدو النص كما النصوص الأخرى لوحة لغوية مكثفة ملؤها اللفظ ورونقها المعنى.

إلتباس الهويّة
بين معلوف وعبد العال

حسين سرمك حسن

دمشق

وقع بين يدي، مؤخرا، العدد السادس والأربعين من من مجلة "الدوحة" الصادر في أغسطس من عام 2011. وقد ضم مقالات وبحوثا ونصوصا متنوعة وغنية، منها مقالة للكاتب "سعيد خطيبي" عنوانها : "أمين معلوف : العربي الثاني في مجمع الخالدين الفرنسي" أشار فيه الكاتب إلى أن أمين معلوف سوف يدخل أخيرا الأكاديمية الفرنسية في نوفمبر المقبل ليشغل المقعد رقم 29خلفا للأنثروبولوجي (كلود ليفي شتراوس) (1908 ـ 2009) ليصبح ثاني عربي يلتحق بالأكاديمية الأهم والأكثر شهرة في أوروبا بعد الروائية الجزائرية آسيا جبار (2005). وقد ارتبط (اسم أمين معلوف في ذهنية القارئ الأوروبي إجمالا، والفرنسي خصوصا، بمسائل الهوية والكتابة عن التاريخ المشترك بين الشرق والغرب. يسميه البعض "مستر شرق" ويدعوه بعض آخر "مستر تسامح". أما معلوف نفسه فيقول : لا أوظف كثيرا كلمة تسامح. لست بالضرورة انسانا متسامحا، ولكنني إنسان يشترط منطقا. أرفض جميع أشكال التميز. تربيت على رفض الاحتقار).

وبالإضافة إلى رواياته المعروفة: ليون الأفريقي 1986،سمرقند 1988، حدائق النور 1991.. وغيرها فقد عرف بكتابه بالغ الأهمية "الهويات القاتلة ـ 1998" والذي يرى فيه أن الهوية ليست واحدة، لكنها تتشكل وتتحول على امتداد حياة الفرد. ويشير إلى حالته هو شخصيا فيقول : أن تكون عربيا مسيحيا فرنسيا فتلك حالة جد خاصة، تمثل أقلية ومن الصعب تحمّلها. وقد لفت انتباهي أن أمين معلوف يعالج قضية التباس الهويات وتشابكها في كتابه هذا من خلال مهاجر تركي في ألمانيا والذي يجد نفسه "أجنبي بالنسبة للألمان، وغير تركي تماما لبني جلدته". وقد أحالني الوصف الأخير المركز والبالغ الدلالة، وبصورة مباشرة، إلى القاص والروائي العراقي البارع "علي عبد العال" الذي وصفته في كتابي "الفردوس المشؤوم" بأنه "اختصاصي أدب المنافي"، فقد أصدر هذا الكاتب، حتى الآن، تسعة أعمال هي: 1 ـ المشي في الحلم ـ قصص ـ 1987, 2 ـ مقتل علي بن ظاهر ومتاهته ـ رواية ـ 1996.

3 ـ أنشودة الوطن.. أنشودة المنفى ـ قصص مشتركة ـ 1997.
4 ـ العنكبوت ـ قصص ـ 1998.
5 ـ أقمار عراقية سوداء في السويد ـ رواية ـ 2004.
6 ـ ميلاد حزين ـ رواية ـ 2005.
7 ـ أزمان المنافي ـ ثلاث حكايات ـ 2005.
8 ـ عالم صغير جدا ـ قصص ـ 2006.
9 ـ جمر عراقي على ثلج سويدي (جيسيكا) ـ رواية ـ 2008.

وهذه الأعمال جميعا تدور حول التباسات ومعضلات حيوات المواطنين العراقيين المهاجرين، وإلى السويد تحديدا، حيث يعيش علي هناك، ولديه ربع قرن من الخدمة في المنفى كما يقول في رواية "جيسيكا".

وما يهمني قوله هنا هو أن الأطروحات النظرية الحاكمة في صراعات النفس البشرية ـ ومنها صراعات الهوية والمنفى ـ التقطها الأدباء أولا في أعمالهم التي ترتكز أساسا على احباطات النفس البشرية وتصادم الإرادات والعواطف والأحقاد والمصالح. وأكثر هذه المواقف تنسرب تحت غطائها دوافع ومكبوتات اللاشعور. الأمر الذي يتيح للمبدع ـ ومنذ مئات السنين ـ تقديم القراءة " الانفعالية " المحتدمة للغة اللاشعور إذا جاز التعبير، في حين جاء المحلل النفسي وعالم النفس والاجتماع متأخرين ـ بعد منتصف القرن التاسع عشر تحديدا أي منذ قرن ونصف ـ ليقدما القراءة العقلية والمعرفية المنهجية لهذه اللغة وحل شفراتها المركبة. فالعقد التي صار تداولها تقليديا في أدبيات التحليل النفسي طُرحت أولا من قبل المبدعين مثل عقدة أوديب وعقدة ألكترا وعقدة قابيل وعقدة المحارم وغيرها. كما ضمت النتاجات الإبداعية والأسطورية الكثير من أساسيات التحليل النفسي وعلم النفس مثل الآليات الدفاعية ـ الإسقاط والإنكار والتبرير والإنشطار والإزاحة.. إلخ ودور الأحلام في التعبير عن الرغبات المكبوتة، وفعل مكوني العقل من شعور ولاشعور وأدوار مكونات الجهاز النفسي وصراعاتها؛ الأنا والهو والأنا الأعلى ووجه الأب الشرير (إبليس/ الشيطان)، وصورة الأم الخاصية، وغيرها الكثير الكثير. وفي قصته "المهاجر" الطويلة (60 صفحة) والتي ضمتها مجموعته القصصية "عالم صغير جدا" يقدّم علي عبد العال وصفا رائعا لالتباس هوية المنفي لا يقل روعة عن وصف أمين معلوف إن لم يفقه بلاغة نفسية حيث يقول على لسان بطله "سلمان ماجد" : (كنت في مطلع العشرينات عندما جئت إلى السويد. ومضى عليّ أكثر من عشرين عاما هنا. من أنا؟ أنا عراقي في معشر سويدي، وأنا سويدي في معشر عراقي. في كل نصف يقف كلي ضد نصفي الآخر. وهكذا وجدتني مشطورا إلى نصفين كاملين ; ازدواج متكامل لا يمكنني توليفه بمجرد الرغبة. تلك المعادلة التي حدثت عن طريق الخطأ أو عن طريق الصح، لا يهم ذلك، المهم أنها حدثت، تتقاذفني بشطريها المتعاكسين، المتضادين، وأنا محصور بين الدفّتين. أحاول العثور على عناصر أخرى تنأى بي عن هذين القطبين اللذين يطحنان أيامي وأوقاتي في الهباء ـ ص 96).

دور الأحلام في التعبير عن الرغبات المكبوتة، وفعل مكوني العقل من شعور ولاشعور وأدوار مكونات الجهاز النفسي وصراعاتها؛ الأنا والهو والأنا الأعلى ووجه الأب الشرير (إبليس/ الشيطان)، وصورة الأم الخاصية، وغيرها الكثير الكثير. وفي قصته المهاجر الطويلة (60 صفحة) والتي ضمتها مجموعته القصصية عالم صغير جدا يقدّم علي عبد العال وصفا رائعا لالتباس هوية المنفي لا يقل روعة عن وصف أمين معلوف إن لم يفقه بلاغة نفسية